****

**وإنه لتنزيل رب العالمين**

**{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}**

لَهِج كثير من المبشِّرين والمستشرقين وغلَوْا في معاداة الإسلام والكيد له، وتأثَّر بهم بعضُ المستغربين من الشرقيين، وبعض ضعفاء الإيمان من المسلمين، فادَّعوا أن القرآنَ الكريم من تأليف محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، وزعموا أن أسلوبَ السور المكية غير أسلوب السور المدنية؛ لأن محمدًا في زعمهم تأثَّر باليهود في المدينة، وما توارثوه من حضارة وفلسفة وتاريخ ومنطق، وقالوا: إن هذا يتجلى في الآية الكريمة: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: 22].

فهي قضية منطقية، لها مقدمة ونتيجة عقلية، وما كان محمد ليقولها في مكة حيث كان يعيش بين قوم أُمِّيين، تفشَّت فيهم الجهالة والسذاجة، وفات القائلين أن الآيةَ وردت في سورة الأنبياء، وهي سورة مكية، كما في جميع المصاحف، وفي كتب العلوم القرآنية؛ كالبرهان للزركشي، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، وأن جميع آيات السورة مكية.

ومن الخير أن نسوق الأدلة العقلية والبراهين المنطقية التي تقرر أن القرآنَ الكريم ليس من صناعة محمد، ولكنه: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: 192، 193]؛ تثبيتًا للإيمان في نفوس أبنائنا الشبان، ودحضًا للشبهات والافتراءات، فنقول وبالله التوفيق، ومنه المعونة، وعليه الاعتماد:

أولاً: كان الرسولُ صلى الله عليه وسلم أميًّا لا يقرأ ولا يكتب: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} [العنكبوت: 48]، فما دخَل كلية من الكليات، ولا جامعة من الجامعات، ومع ذلك جاءنا بتشريعٍ دستوري كامل أصيل، عالَج فيه شؤونَ الرجال والنساء، والأفراد والجماعات، وشرع للأمة العربية والأمم الأخرى، ونظم حالات السلم والحرب، وتناول الوصيةَ والميراث، والبيع والشراء، والفضائل الخُلقية، كما تناول حقوقَ الإنسان التي لم يعرفها العالَم إلا في ديسمبر 1948، عقب الحرب العالمية الثانية، بعد حوالي 14 قرنًا من ظهور الإسلام، وقد أثبت التطبيق العملي لهذه الشريعة صلاحيتَها التامة لكل زمان ومكان، في جميع البيئات والظروف والملابسات، وقد ساد المسلمون العالَم يوم تمسكوا بهذه الشريعة الغراء، وما تخلفوا إلا حين تخلَّوا عنها، وافتتنوا بالشرائعِ البشرية وعمِلوا بها.

وإصدار قانون تشريعي الآن يحتاج إلى عدة لجان لدراسته، يتم عرضه على مجالس النواب، ثم على مجالس الدولة، ثم على وزارات العدل لمختلف الشعوب، وعند عرضِه للتطبيق العِلمي يتضحُ ما فيه من عيوب تتجافى به عن العدلِ المنشود، فيعاد فيه النظرُ مرات ومرات من كبار المشرعين.

فرجل واحد مثل محمد لم يدرسِ الشرائع والقوانين، ولم ينَلْ قسطًا من الثقافة القانونية، ثم يجيئنا بهذه الشريعة الغراء - دليلٌ على أنها ليست من صناعتِه، وإنما هي تنزيلُ رب العالَمين.

ولقد اعترف كبار رجال القانون في العالَم بأهمية هذه الشريعة الغراء، وأصالتها، وصلاحيتها للتطبيق في مختلف الأمم والشعوب؛ حيث أصدر مؤتمر القانون الدولي في لاهاي بهولندا سنة 1937 قرارًا بأن الشريعة الإسلامية شريعةٌ أصيلة كاملة متكاملة، وأهاب بالدول الإسلامية أن تقنِّن هذه الشريعة، ليتسنى الانتفاع بها للدول الأخرى، وتكرَّرَت هذه التوصية في عدة مؤتمرات قانونية دولية متوالية مؤلَّفة من جهابذة رجال القانون في العالَم كل عشر سنوات.

ثانيًا: تناوَل القرآن الكريم صفحاتٍ من تواريخ الأمم السابقة للإسلام، لم تكُن معروفةً لإيغالِها في القِدَم، وما كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم مؤرخًا، ولا ملمًّا بدراسة اللغات القديمة؛ كالهيروغيلفية، والحِمْيَرية، والعِبْرية، وغيرها، ولا كان أحد من العرب يعرف هذه الأحداث التاريخية: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} [هود: 49].

ونستطيع أن نضربَ مَثلاً بقصة ملكة سبأ، التي وصفها القرآن الكريم بأنها: {أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} [النمل: 23]، وقد أثبتت الدراساتُ التاريخية ازدهارَ هذه المملكة، وأن حضارتَها كانت تضارع حضارةَ قدماء المِصريين، وأن أهلها برَعوا في إقامة السدود المائية العظيمة والقنوات العديدة الممتدة منها إلى جميع ربوعِ المملكة، بحيث يسير المسافرُ في جميع الطُّرق، فيجد الحدائقَ الغناء تحفُّ به من يمين وشمال: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} [سبأ: 15].

إن محمدًا النبيَّ الأمي لم يصِفْ هذه الحضارة من عند نفسِه، وإنما هو تنزيل رب العالَمين: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: 192، 193].

ويعقِّبُ القرآنُ الكريم على بعض الأحداث بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشهدها، وما كان له أن يشهدَها؛ لتطاول القرون، ولكن الله أوحاها إليه، فيعقب على قصة يوسف وكيدِ إخوته له بقوله تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} [يوسف: 102].

ويعقِّب على قصة موسى عليه السلام بقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ \* وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ \* وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [القصص: 44 - 46].

ويعقِّبُ الله سبحانه وتعالى على اقتراع كهنةِ بني إسرائيل على أيهم يفوز بكفالة السيدة مريم العذراء فيقول تعالى: {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [آل عمران: 44].

ثالثًا: الإنباء بالماضي السحيق قد تتناوله الألسنةُ، فينتقل من جيل إلى جيل، أما الإنباء بالمستقبل القريب أو البعيد فهو فوق طاقة البشر، وقد حفل القرآنُ الكريم ببعض الأنباء الآتية، وتم وقوعُها طبق الأصل على مدى قريب أو بعيد؛ فمثلاً حدَث في غزوة بدر - وكانت قريشٌ أكثرَ من المسلمين عَتَادًا، وأوفر عدة، وأمضى سلاحًا - أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أشرَف عليهم وهو يتلو قوله تعالى: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [القمر: 45]، وما هي إلا ساعات قليلة حتى انهزمت قريش، وولَّت الأدبار، فمن أنبأ محمدًا بهذه النتيجة قبل وقوعها، ومَن أدراه أن الأمر ربما كان على غير ما أعلنه.

وحينما التحمت الإمبراطورية الفارسية بالإمبراطورية الرومانية وهزمتها هزيمة ساحقة بقيادة سابور ملك الفرس، فرِح المشركون فرحًا شديدًا؛ لأنهم جعلوا هذه النتيجة انتصارًا للوثنية، التي تمثلها الإمبراطورية الفارسية على أهل الكتاب، الذين يمثلهم الرومان، وحزن المسلمون، وكان المؤرخون يرون الهزيمة ساحقة، وأنه لا سبيل لانتصار الروم إلا بعد عشرات السنين، فنزل قوله تعالى: {الم \* غُلِبَتِ الرُّومُ \* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ \* فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ \* بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ \* وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ} [الروم: 1 - 6].

روى الترمذي: "أن المشركين لَمَّا سمِعوا هذه الآيات، قال أناس منهم لأبي بكر: فذاك بيننا وبينكم، زعم صاحبكم أن الرومَ ستغلب فارسَ في بضع سنين، أفلا نُراهِنُك على ذلك؟ قال: بلى، وذلك قبل تحريم الرهان، فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضَعوا الرِّهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل؟ البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسَمِّ بيننا وبينك وسطًا نحتكم إليه، قال: فسمَّوا بينهم ستَّ سنينَ، فمضت الستُّ سنينَ قبل أن يظهر الروم، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنةُ السابعة ظهرت الرومُ على فارسَ، فعاب المسلمون على أبي بكر تسميةَ ستِّ سنين؛ لأن الله يقول: {فِي بِضْعِ سِنِينَ} [الروم: 4]، قال: فأسلم عند ذلك ناسٌ كثيرٌ".

قال الترمذيُّ: هذا حديث حسن صحيح.

فمن أعلم محمدًا صلى الله عليه وسلم أن الرومَ ستظهرُ على الفُرْسِ في بضع سنين، بعد أن هزمهم الفرس هزيمة ساحقة، واضطروا ملكهم هرقل إلى اللجوء إلى القسطنطينية، وحاصروهم فيها مدة طويلة، ولم يكن يخطر ببال إنسان أن الرومَ سيهزمون الفُرس في هذه الفترة اليسيرة.

وفي صُلح الحديبيَة عاد المسلمون إلى المدينة بعد أن تعهد المشركون لهم بتمكينهم من أداء العمرة بالمسجد الحرام في العام التالي، ولم يكن أحدٌ يدري أيوفون بالعهد أم ينقضونه؟ فنزل قوله تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: 27].

والخبرُ في الآية مؤكَّد بلام القسم ونون التوكيد، فمن أدرى محمدًا أن المشركين سيسمَحون له ولأصحابه بالعمرة، ومن أعلمه أن العمرة سيعقبها فتحٌ قريب، هو فتح مكة، قد ينقض المشركون عهدهم ويغدرون، وطبيعتهم الغدر، ولكن الآية تؤكد ما يحدث بعد عام تأكيدًا جازمًا، وليس ما فيها من عند محمدٍ صلى الله عليه وسلم، ولكنه تنزيلُ ربِّ العالمين، نزل به الرُّوح الآمين.

رابعًا: لو كان القرآنُ الكريم من تأليف محمد، لجارى فيه ميولَه وأهواءَه، ولم يخالِفْهما، ولكن القرآن الكريم جزَم بما يناقض ميوله صلى الله عليه وسلم؛ فقد كان يود من صميم قلبه أن يُسلِمَ عمه أبو طالب، ولكن القرآن الكريم صدمه بما يعارض رغباتِه؛ فقال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص: 56]؛ فقد ثبت في الصحيحين أن هذه الآية نزلت في أبي طالبٍ عمِّ الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد كان يحُوطه وينصُره، ويقوم في صفِّه، ويحبه حبًّا طبيعيًّا لا شرعيًّا؛ قال الزهري: حدثنا سعيد بن المسيَّب عن أبيه: "لما حضرت أبا طالبٍ الوفاةُ جاءه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عنده أبا جهلِ بنَ هشام وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال صلى الله عليه وسلم: ((يا عمِّ، قل: لا إلهَ إلا اللهُ كلمةً أُحاجُّ لك بها عند الله))، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغبُ عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله يعرِضها عليه ويعودانِ بتلك المقالة، حتى كان آخر ما قال: هو على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، وقد جاء القرآن الكريم بما يناقض رغبةَ الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه ليس من تأليفه، وإنما هو: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: 192، 193].

ومن الأمثلةِ الواقعية على مناقضة القرآن الكريم لرغبة الرسول صلى الله عليه وسلم موقفُه من عبدالله بن أبيٍّ ابنِ سلولَ، زعيم المنافقين بالمدينة؛ فقد كان يُهادِنُه على الرغم من نفاقِه، مجاملةً منه صلى الله عليه وسلم لابنه الصحابي الجليل القوي الإيمان عبدالله، وحدَث أن استأذَن هذا الصحابيُّ الكريم الرسولَ صلى الله عليه وسلم في أن يقتل أباه لنفاقِه قائلاً: "أنا أبرُّ الناس بأبي يا رسول الله، والأنصار جميعًا يعلمون هذا، ولكنه منافق يَكيد للإسلام، وأخشى أن يقتلَه أحدُ المسلمين، فتأخذني العزة بالإثم فأقتله، فأقتل مسلمًا بكافر، فيكون مصيري إلى النار، فأْذَنْ لي أن أقتلَه أنا"، فنهاه النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك؛ لأن الإسلامَ لا يبيح قتلَ مَن نطق بشَهادة التوحيد ولو نطقها نفاقًا.

وحدث أن عبدَالله بن أبيٍّ كاد في إحدى المواقع أن يثير فتنةً بين المهاجرين والأنصار حين تخاصَم غلام لأحد المهاجرين مع غلام لأحد الأنصار، فاستغاث الأولُ بالمهاجرين، واستغاث الثاني بالأنصار؛ فانتهزها عبدالله بن أبيٍّ فرصةً، وقال: لقد صدق المثل: "سمِّنْ كلبك يأكلك"، لقد آوَيْنا المهاجرين وأكرمناهم فاستطالوا علينا، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ، وبلغت هذه المقالةُ ابنه عبدالله، فانتظره خارج المدينة حتى عاد، وأمسك بتلابيبه، وأقسم ألا يمكنه من دخولها حتى يعترف بأن العزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين، فاضطر إلى الاعتراف بهذا، فلما مات حزن ابنه عبدالله عليه حزنًا شديدًا، وذهَب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم باكيًا، ورجاه أن يستغفرَ لأبيه، وأن يعيره قميصه ليكفِّنَه فيه، وأن يصلي عليه، قال البخاري: ".... فأعطاه القميص، ثم قام ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، تصلِّي عليه وقد نهاك ربُّك أن تصليَ عليه؟ فقال صلى الله عليه وسلم: ((إنما خيَّرني الله فقال: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} [التوبة: 80]))، قال عبدالله بن عمر: فصلَّى عليه وصلينا معه، وأنزل الله قوله: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة: 84].

ومن المعروف أن الصلاةَ على الموتى استغفار لهم.

وجاء القرآن الكريم مناقضًا لميول النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه ليس من تأليفه؛ {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}.

خامسًا: لو أن القرآنَ من تأليف محمد بن عبدالله ما ورد فيه العتابُ الشديد للنبيِّ صلى الله عليه وسلم في مواقف عديدة، مثل موقفه صلى الله عليه وسلم من ابن أم مكتوم الأعمى؛ فقد ذكر لفيفٌ من الرواة الثقات أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبدالمطلب من زعماء قريش، وكان يطمع في إسلامِهم وإسلامِ عدد من أتباعهم بإسلامهم، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له: عبدالله بن أم مكتوم وهو يناجيهم، فقاطع النبيَّ صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله، علِّمني مما علمك الله، فأعرَض عنه صلى الله عليه وسلم، وظهر العُبوس على وجهه، فليس من الآداب المرعية في الأحاديث أن تقاطع مَن يتحدث إلا لضرورة، وابن أم مكتوم لم يرَ العُبوس، ولكن الله رآه؛ قال تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى \* أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى \* وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى \* أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى \* أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى \* فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى \* وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى \* وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى \* وَهُوَ يَخْشَى \* فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى} [عبس: 1 - 10]، فأكرَم النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآيات ابن أم مكتوم، وكان يُقبِل عليه، ويحتفي به، ويُكرِمه حين يلقاه قائلاً: ((أهلاً بمن عاتَبَني ربِّي فيه))، وكان يوليه أحيانًا حُكم المدينة حين يغادرُها في إحدى غزواته.

ومن مواقف عتاب الله سبحانه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما حدَث في موقفه من زيد بن حارثة، الذي تبنَّاه الرسول وزوجَّه بابنة عمته زينبَ بنت جحش الأسدية، وكانت جميلة حسيبة، وزيد كان عبدًا رقيقًا اشترته السيدةُ خديجة، وأهدته إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، فقام على خِدمته، وطلبه أبوه وعمُّه كعبٌ حتى جاءا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقالا له: يا بن عبدالمطلب، إنك رجلٌ كريم، وابننا عندك، وقد جئنا لنفتديَه بما تطلب من الفداء، فامنُنْ علينا، وأحسن إلينا في فدائه، فقال: ((من هو؟))، قالا: زيد بن حارثة، فقال صلى الله عليه وسلم: ((فهلاَّ غير ذلك؟))، قالا: ما هو؟ فقال: ((ادعوه وخيِّروه، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختارُ على من اختارني أحدًا))، فقالا: قد زدتَنا على الإنصاف وأحسنتَ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((هل تعرف هذين؟))، قال: نعم، هذا أبي وهذا عمي، قال: ((فأنا من قد عرفتَ ورأيتَ صحبتي لك، فاختَرْني أو اخترهما))، قال زيد: ما أريدهما، وما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، أنت مني مكان الأب والعم، فقالا: ويحك يا زيد! أتختار العبوديةَ على الحرية؟ وعلى أبيك وأهل بيتك؟ قال: نعم، قد رأيتُ من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذي أختار عليه أحدًا أبدًا، فلما رأى النبيُّ ذلك أخرجه إلى الحِجْر فقال: ((يا من حضر، اشهدوا أن زيدًا ابني يرثني وأرثه))، فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسُهما وانصرفا، وبعد هذا منع القرآن عادة التبنِّي؛ قال تعالى: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ} [الأحزاب: 5]، وكان من عادة العربِ ألا يتزوج الرجلُ امرأةَ مَن تبناه، ولكن الله أراد لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يكون قدوة في نقض هذه العادة، فيتزوج امرأة زيد، "السيدة زينب بنت جحش".

وكانت في اعتزازها بحسبها تبدو منها بوادر تسيء زيدًا، فيشكو إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول له: ((أمسِكْ عليك زوجَك، واتق الله))، وهو يعلم أن اللهَ قد جعلها من نسائه، فنزل قوله تعالى معاتبًا رسوله: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً} [الأحزاب: 37].

ويخترع المبشِّرون والمستشرقون أكاذيبَ ينسبون فيها إلى النبي صلى الله عليه وسلم مفتَرَيات يتخذونها وسيلةً للطعنِ في عصمته؛ فقد ذكَروا أن نظره وقَع على زينب في بيت زوجِها، فعشقها، وقال: "سبحان مقلِّبِ القلوب"، وأحسَّ زيد ذلك، فعرض على الرسول أن يطلقها فقال له: {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ}، والمعروف أن الرسولَ صلى الله عليه وسلم يعرفها منذ نشأتها معرفة صادقة، وكان يستطيع أن يبني بها وهي عذراءُ فلا يترقبها حتى تصبح ثيبًا، وهي قد تزوجت زيدًا على مضضٍ منها ومن أسرتها، ولولا رغبة الرسول صلى الله عليه وسلم في إتمام هذا الزواج ما تم، وزيدٌ هو الذي كان يلح في تطليقها، وكان الرسولُ صلوات الله وسلامه عليه يستمهلُه وينصَحُه بالتمسُّك بزوجتِه.

قالت عائشة رضي الله عنها: "لو كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا مما أوحي إليه مِن كتاب الله تعالى، لكتَمَ هذه الآيةَ: {وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} [الأحزاب: 37]؛ رواه البخاريُّ ومسلم.

وما كان له أن يكتم شيئًا؛ لأن القرآن من عند الله، وليس من عنده، وإنما هو: {لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}.

ومن ألوان العتابِ العديدة التي وردت في القرآن الكريم موجَّهةً من الله إلى رسوله، وكان الرسولُ يستطيع إخفاءها لو كان من تأليفه، ولكنها وحيٌ يوحى، من هذه الألوان ما قرَّره القرآنُ الكريم في موضوع أسرى بدرٍ؛ حيث قال تعالى: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ \* لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الأنفال: 67، 68]، والعتابُ هنا قائمٌ على أن الرسولَ صلى الله عليه وسلم كان عليه أن يمعن في قريش تنكيلاً، حتى يكسر شوكتهم، ويُوهِن قوتهم، وحتى لا يعودوا إلى حربه مرة أخرى، وكان من رأي أبي بكرٍ العفوُ عن الأسرى، وأخذ فدية منهم، وكان رأي عمرَ القتل، مع أن القرآنَ الكريم يقول: إن الإثخانَ في الأرض ينبغي أن يتمَّ قبل الأَسْر؛ قال تعالى: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} [محمد: 4]، وإذا كان هناك مَن وافقت الآيةُ الكريمة رأيَه، فهو سعد بن معاذ، فقد كان يكره الأَسْرَ قبل الإثخان، فلو كان القرآن من صناعة محمد، ما وجَّه فيه هذا العتابَ الشديد إلى نفسه، ولكنه {لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}.

سادسًا: كشف الأحداث الغيبية؛ فقد حدثت بعضُ الأمور، بالَغ أصحابُها في كتمانها، ولكن القرآن الكريم كشَف عنها السِّتارَ، وأطلع الرسول وأصحابه على ما خفي من الأمور؛ فقد حدَث أن بني أبيرق وهم قوم ضعفاء الإيمان، نقبوا دار رفاعة بن زيد، وسرَقوا أدرعًا له، وقيل: إن السارق هو بشير بن أبيرق وحده، دون إخوته، ورفع الأمر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما علِم السارق بذلك عمد إلى الدروع فألقاها في بيت رجل بريء، وقال لنفرٍ من عشيرته: إني غيَّبْتُها وألقيتها في بيت فلان، وستوجد عنده، فانطلَقوا إلى نبيِّ الله صلى الله عليه وسلم ليلاً، وقالوا: يا نبي الله، إن صاحبنا بريء، وإنَّ صاحب الدروع فلان، وقد أحطنا بذلك علمًا، فأعذِرْ صاحبنا على رؤوس الناس، وجادل عنه، فنزل قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا \* وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا \* وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا \* يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا \* هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً \* وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا \* وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا \* وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا \* وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء: 105 - 113].

وما كان محمد صلى الله عليه وسلم ليعلمَ ما تم في الخفاء لولا أن الله أطلَعه عليه، وعلَّمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيمًا، فما كان القرآن الكريم من تصنيفه، وإنما هو {لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: 192، 193].

ومِثل هذه المواقف تعددت في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد حدثت مفاداة الأَسْرى عقب غزوة بدر، وكان من بينهم العباسُ عمُّ الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان غنيًّا، ولكنه تظاهَر بالفقر طمعًا في إقلال الفدية، وأطمَعُه في ذلك لِينُ الرسول صلى الله عليه وسلم، فادَّعى أنه أسلم، فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((أما ظاهرك فكان علينا، والله أعلم بإسلامك، وسيجزيك خيرًا))، فادعى أنه لا مال عنده يفدي به نفسه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ((فأين المال الذي أودعتَه أمَّ الفضل، وقلت لها: لو أُصِبْتُ في سفري هذا، فهذا لبني: الفضل وعبدالله وقُثَم، فقال العباس: والله إني لأعلم أنك رسولُ الله، إن هذا الشيء ما علمه إلا أنا وأم الفضل، فأخذ منه الرسولُ صلى الله عليه وسلم مائة أوقية من الذهب فداءً له ولابنَيْ أخيه عَقيل ونوفل، ولحليفه عتبة بن عمرو.

ولما عاد الرسولُ صلى الله عليه وسلم من غزوة بني المصطلق ومعه الأسرى، وفيهم جويرية بنت الحارث زعيم بني المصطلق، وجاء أبوها يطلب فداءها، ونظر للإبلِ التي جاء بها للفداء، فرغِب في بعيرين منها، فغيَّبهما في شِعب من شعاب العَقيق، ثم جاء إلى النبيِّ فقال: يا محمد، أصبتم ابنتي، وهذا فداؤها، فقال صلى الله عليه وسلم: ((فأين البعيرانِ اللذان غيَّبتَهما بالعَقيق في شعب كذا؟))، فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك يا محمد رسول الله، فوالله ما اطلع على ذلك إلا اللهُ تعالى وحده، فكيف علم محمد بهذا الأمر، إن الله علَّمه ما لم يكن يعلم، وكان فضلُ الله عليه عظيمًا، وما كان القرآن الكريم من تأليفه، ولكنه: {لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: 192، 193].

سابعًا: ما مِن كتاب مهما بلغت روعتُه، حفِظ لغته من الاندثار، كما حفظ القرآنُ الكريم اللغة العربية؛ فإن اللغةَ العربية ظلت لغةً حية نحو ألفي عام، على الرغم من أنها تعرَّضَتْ لأحداث عنيفة كادت تقضي عليها، وبخاصة في عصر المماليك والأتراك، ونحن نعلم أن "عباس الأول" حاكم مصر حظَر على طلبة الكلية الحربية أن يتحدَّثَ أحدُهم باللغة العربية، ومَن فعل ألجَمه بلجامٍ عقابًا له، وسخريَّةً منه طيلة يومه، كما تعرضت العربيةُ لغزوات التتار والفَرنسيين والأتراك.

ومن طبيعة اللغاتِ أن تتعرَّضَ للتغيير والتبديل كل مائتين أو ثلاثمائة من الأعوام؛ فقد انقسمت اللغةُ اللاتينية إلى بضع لغات، تخالف أصولَها مخالفة تامة، والإنكليز المعاصِرون يحتاجون إلى مَن يشرح لهم لغة شكسبير الإنجليزية، والفرنسيون يحتاجون إلى من يشرح لهم لغة كورني وراسين الفرنسية، والإيطاليُّون يحتاجون إلى مَن يشرح لهم لغة دانتي الإيطالية، مع أننا نقرَأُ لغةَ المعلَّقات في العصر الجاهلي فنفهمها ونتأثر بها، ونسمع قولَ عنترة:

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهلٌ = منِّي، وبِيض الهند تقطُرُ مِن دمِي

فوددتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها = لَمَعَتْ كبارقِ ثغرِكِ المتبسِّمِ

فنفهم عنه، وننفعلُ معه، ونشاركه في عواطفِه الوجدانية؛ لأن اللغة هي اللغة، واللغة العربية الآن مزدهرةٌ، اعترفت بها هيئة الأمم، وجعلتها من اللغات العالَمية الرسمية السائدة الآن، ويتحدَّثُ بها أكثرُ من مائة مليون عربي، ويعبُدُ اللهَ بها نحوُ ألف مليون من المسلمين، يردِّدونها خمس مرات يوميًّا، وما تم هذا إلا بفضل القرآن الكريم؛ قال الله سبحانه وتعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9].

وما حفِظ لنا اللغةَ العربية إلا القرآنُ الكريم؛ لأنه: {لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: 192، 193].

وحسْبُ القرآن الكريم إعجازًا أنه فرض نفسَه على محطات الإذاعة الأجنبية غير الإسلامية، تُذِيعه في مستهَلِّ إرسالها، وفي نهايته، وليس ذلك بقوَّةِ العرب ولا بسيطرتهم، وإنما لِما لهذا الكتابِ الكريم من مكانة ومنزلة لا تدانيهما منزلة أي كتاب آخر من صناعة البشر؛ لأنه: {لَكِتَابٌ عَزِيزٌ \* لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 41، 42].

والدارسون للُّغاتِ يعلمون أن أكبر كتَّابها لا يستعملون من مفرداتها أكثرَ من 5% خمسة في المائة، وطبقوا هذا على شكسبير في اللغة الإنكليزية، وهو أكبر شعرائها، وعلى غيره من الكتَّاب والشعراء.

أما القرآن الكريم فقد تناوله الدكتور علي حلمي موسى، الأستاذ بكلية علوم عين شمس، وأجرى تجرِبة فيه، يحدثنا هو عنها قائلاً: "يعتبر القرآنُ الكريم من الناحية اللُّغوية قمَّةَ الإعجاز، إن أي دراسة للقرآن تعطينا كنوزًا وتفسيراتٍ أوضحَ وأكبرَ، وتثبت للعالَم أن الدِّين لا يتعارض مع العلم، بل يؤكده... لقد قمت بتغذية الكمبيوتر بالألفاظ الموجودة في القرآن الكريم... وتم شحن كلِّ ذلك في ذاكرة الكمبيوتر بترتيب مخصوص، ونظام معين، واخترتُ معجم الصحاحِ ليكونَ الجهة الأخرى من المقارنة؛ لأنه يعتبر من أدقِّ المعاجمِ في العربية، إلى جانب قُربه من عهد الرسولِ صلى الله عليه وسلم، وقد أثبتت الدراساتُ أن القرآنَ الكريم استخدم 30% ثلاثين في المائة من ألفاظ اللغة العربية، وهذا يعتبر إعجازًا لغويًّا كبيرًا؛ فإن أغنى أدباءِ وشعراءِ العالَم مثل شكسبير أو العقاد، لم يستخدموا سوى 5% فقط من لغتهم...، كما أن الألفاظ التي استُخدمت مرةً واحدة في القرآن الكريم بلغت 374 لفظًا، وهذا أيضًا من الإعجاز اللُّغويِّ...

كما أثبتت الدراسة أن لفظ الجلالة (الله) أكثر الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم، ثم كلمة (رب)، تليها كلمة (آمن)، واعتذر الدكتور علي حلمي موسى عن عدمِ قيامه بدراسة تفسيرية لهذه النتائج التي انتهى إليها العقل الإلكتروني، بأنه يكتفي بأن يضعَها أمام علماء الدِّين المشتغلين بالدِّراسات القرآنية.

فلو كان القرآنُ الكريم من صناعة محمد، ما زادت الأصول اللغوية فيه عن 5% من متن اللغة العربية، ولكنها ارتفعت إلى 30%؛ لأنه {تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: 192، 193].

ثامنًا: العصمة من الناس:

روى الترمذيُّ والحاكم وابن أبي حاتم وابن جرير عن السيدة عائشة - رضي الله عنها -: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُحرَس ليلاً حتى نزلت الآية: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة: 67]، فأخرَج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة فقال لهم: ((أيها الناس، انصرِفوا؛ فقد عصمني الله)).

فلو كان القرآنُ من صناعة محمد، ما اطمأن إلى هذه الآية، ولا صرف الحرَّاس عن حراسته، ولكنه: {تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: 192، 193]، فاطمأنَّ إلى وعدِ الله كلَّ الاطمئنان، وقد حفِظه الله وعصَمه من اليهود الذين دسُّوا له السمَّ في شاة مذبوحة، فنطقت وأخبرته أنها مسمومةٌ، فامتنع عن أكلها، وذلك بخيبر؛ (راجع صحيح البخاري في كتاب المغازي).

وأخرج الشيخانِ عن النبي صلى الله عليه وسلم في إحدى الغزوات أنه استظل بشجرة ونام تحتها، ونام أصحابه في مواضعَ متقاربة، فإذا بالرسولِ صلى الله عليه وسلم يدعوهم، فذهبوا إليه وإذا عنده أعرابي، فقال صلى الله عليه وسلم: ((إن هذا اختَرَط عليَّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظتُ وهو في يده مصلتًا، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: اللهُ ثلاثًا))، ولم يعاقبه.

تاسعًا: الاستغراق في العبادة:

كان صلى الله عليه وسلم يطيل الصلاة في جوف الليل حتى تتورَّم قدماه؛ تلبية لقوله تعالى: {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً \* نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً \* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً} [المزمل: 2 - 4]، وكانت السيدةُ عائشة تشفق عليه، وتتألَّم لِما يعانيه، فتقول له: يا رسول الله، رفقًا بنفسك؛ فقد غفر اللهُ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيقول لها صلى الله عليه وسلم: ((يا عائشة، أفلا أكونُ عبدًا شَكورًا، ولو كان القرآنُ من تأليفه، ما ألزم نفسه هذه المشقة، ولا كابَدَ فيها ما كابد، ولا صام يومَ الاثنين والخميس من كل أسبوع، وإنما هو {لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: 192، 193].

والقرآنُ الكريم لو كان من تأليف محمد، ما ذكر فيه ما وجَّهه المشركون إليه من لَمْزٍ وتشهير، فإننا لو أردنا أن ندرسَ ما ذكَره الوثنيون من مناقضات للقرآن الكريم، فإننا لن نجد إلا مرجعًا واحدًا جمَع ما قالوه، هو القرآن الكريم، ولو كان القرآن من صناعةِ محمدٍ، ما عُنِي بتسجيل أقوالِ الوثنيِّين فيه، ومن الأمثلة على ذلك قولُهم: إنه أساطيرُ الأوَّلين؛ قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأنعام: 25].

وقال سبحانه: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} [الفرقان: 5]، وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [النحل: 24].

وقالوا عن القرآن الكريم: إنه: (سِحر يؤثر)؛ قاله الوليدُ بن المغيرة ومَن مَالأه؛ قال تعالى فيه: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ \* فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ \* ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ \* ثُمَّ نَظَرَ \* ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ \* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ \* فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ \* إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} [المدثر: 18 - 25].

وكلَّما واجَههم بآية بيِّنة، قالوا: هذا سِحر مبين؛ قال تعالى: {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ \* وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ \* وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ \* وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الصافات: 12 - 15]، وتواصَوْا فيما بينهم أن يُعرِضوا عن القرآن إذا طرق أسماعَهم، وأن يُمعِنوا في اللغو والضجيج، حتى لا يصلَ إلى آذانهم؛ قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت: 26]، وادَّعوا أنهم قادرون على الإتيان بمثله؛ قال تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأنفال: 31].

وزعَموا أنه إفك أعانه عليه بعضُ أنصاره؛ قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْمًا وَزُورًا} [الفرقان: 4].

وزعَموا أنه يتعلم القرآنَ من غلام نصراني، اسمه: يعيش أو بلعام، أعجمي اللسان، وهو حداد، ويعمل عبدًا عند بعض بني الحضرمي، ولا يكاد يُبِين؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} [النحل: 103].

وإذا أنذَرهم بالبعث بعد الموت، قالوا: {لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [النمل: 68]، وقالوا: لو كان القرآنُ خيرًا لسبَقْنا نحن إليه محمدًا، فهو ليس بخير، ولكنه إفك قديم؛ قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ} [الأحقاف: 11].

وإذا طرق القرآنُ أسماعَهم، أسرَعوا في الإعراض والانشغال عنه، لاهِينَ منصرفين: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ \* لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ} [الأنبياء: 2، 3]، وأعلنوا هذا هاتفين: {قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} [فصلت: 5]، وقالوا عنه: إنه سِحر مصنوع، وإفك مفترًى؛ قال تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [سبأ: 43]، ويزعمون أنه من صناعة محمدٍ، وأنه تقوَّله وافتراه: {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ \* فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ} [الطور: 33، 34]، ويتحدَّوْنه ليأتيهم بقرآنٍ آخرَ غيرِ هذا القرآن حينما يَضِيقون بأحكامه، فيقولون له: {ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ \* قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [يونس: 15، 16]، ويتحدَّوْن الرسول صلى الله عليه وسلم منكِرين عليه نزول القرآن منجَّمًا: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً \* وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} [الفرقان: 32 - 33]، وأعلنوا كُفْرَهم بالقرآن الكريم، وبما سبَقه من الكتب السماوية: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} [سبأ: 31].

وزعموا أن القرآن ضربٌ من ضروب الشِّعر، فقال تعالى في الردِّ عليهم: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} [يس: 69].

وكانوا كثيرًا ما يستمعون إلى آياتِ الله ساخرين مستهزئين، وقد أهاب اللهُ تعالى بالمؤمنين أن ينصرفوا عن الكفَّارِ في هذه الأحوال؛ قال تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء: 140].

وكان بعضُهم يعدِل عن الآيات المحكَمات، ويتتبع الآيات المتشابهات، محاولاً أن يصرِفَها عن وجوهها إلى ما يَرْضاه من شهواتٍ وأهواء؛ قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران: 7]؛ وذلك مثَلاً أنهم كانوا إذا سمعوا قوله تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} [الأنبياء: 98] - ضحكوا، وكان السببُ في ذلك - كما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة - أن الوليد بن المغيرة قال: زعم محمد أنَّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصَبُ جهنَّم، فقال عبدالله بن الزِّبَعْرَى: أما والله لو وجدتُه لخَصْمتُه، سلوا محمدًا: كل ما يعبد من دون الله في جهنَّم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود يعبدون عُزيرًا، والنصارى يعبدون المسيح ابن مريم، فيعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبدالله بن الزِّبَعْرَي، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((كل مَن أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان، ومَن أمرهم بعبادته؟ وأنزل الله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} [الأنبياء: 101]؛ أي: عيسى وعُزَير ومَن عُبِد معهما من الأحبارِ والرُّهبان الذين مضَوْا على طاعة الله عز وجل، فاتَّخذهم مَن عبدهم مِن أهل الضلالة أربابًا من دون الله، ونزَل فيما يذكُرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بناتُ الله: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} [الأنبياء: 26]...؛ انتهى نقلاً عن تفسير ابن كثير، ويزيد على ما ذكره ابن كثير أن كلمة (ما) في الآية الكريمة: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [الأنبياء: 98]، تدلُّ لغويًّا على غير العاقل غالبًا؛ فالمقصود بها أنهم وما يعبدون من دون الله من أصنام وكواكبَ وأشجار وحيوان، مصيرهم جميعًا إلى النار.

وكانوا إذا سمعوا عبارةَ التوحيد أعرَضوا، ورمَوْه صلى الله عليه وسلم بالجنون: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ \* وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ} [الصافات: 35، 36]، وإذا ذكَّرهم بالبعث والنشور صاحُوا ساخرين: {إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ \* فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الدخان: 35، 36]، {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} [الجاثية: 24]، {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ \* لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [النمل: 67، 68].

ومن المعروف أن كلَّ مجرمٍ أو مذنب يتلمس لتبرير جريمته أو ذنبه عذرًا ما، يسميه علماء النفس باسم التبرير، ويسميه القرآنُ الكريم بالمعاذير؛ يقول الله تعالى: {بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ \* وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} [القيامة: 14، 15]، ولم يُغفِل القرآنُ الكريم تسجيل تبريرات المشركين لشِركهم، ومعاذيرهم عن عبادة الأصنام؛ قال تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [يونس: 18]، وقال سبحانه: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} [الزمر: 3]، ووصَف إمعانَهم في البخل وتبريرهم له، فقال سبحانه: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [يس: 47].

ووصَف القرآنُ الكريم مبلغ تعصبهم وإسرافهم في المكابرة والعتاد، فقال تعالى: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الأنعام: 7]، وقال سبحانه: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ \* لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} [الحجر: 14، 15].

وكان الرسولُ صلى الله عليه وسلم يتألَّم من عِنادِ قومه، وتكذيبهم له، فواجَهَهم الله بأنهم هم الكذابون؛ لأنهم يُعلِنون خلافَ ما يعتقدون، فإنهم في قَرارةِ أنفسِهم يعتقدون صِدْقَ الرسول، وأمانتَه، وقد أطلَقوا عليه لقَبَ الأمين، وإذا كانت لدى أحدهم تحفةٌ ثمينة لم يجِدْ من يُودِعُها عنده إلا الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ثقةً في أمانته وصِدقه، والله سبحانه يواسي رسوله، ويجابه المشركين بكذبهم فيقول: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام: 33]، والآية مكِّيَّة واجَه بها الرسولُ قومَه، فلم يستطيعوا أن يواجهوه بالتكذيبِ أو الادِّعاء.

ومن هنا نرى القرآنَ الكريم قد حفِظ لنا أقوال المشركين كاملة، بحيث لا نجد مصدرًا آخرَ غير القرآن سجَّل لنا هذه الأقوال.

ولو كان القرآنُ من صناعة محمدٍ، ما سجَّل فيه أقوالَ خصومه الألدَّاء، ولكنه {لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: 192، 193].

وكما سجَّل القرآنُ الكريم أقوالَ المشركين في القرآن، سجَّل أقوالهم في الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد اتهموه بالكذب: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} [الأنعام: 66]؛ وذلك لأنَّهم استبعَدوا أن يُرسِل الله أحدًا من البشر، وأنه لو شاء لأنزل ملائكةً؛ قال تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ} [يونس: 2]، ولجُّوا في اتهامِه بأنه ساحر: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ \* أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: 4، 5]، ثم رمَوْه بأنه مسحور يتخيَّلُ أمورًا لا أساس لها من الواقع؛ قال تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُورًا} [الإسراء: 47]، واستبعَدوا عليه أن يكونَ رسولاً وهو إنسانٌ مثلُهم يأكُلُ الطعام ويمشي في الأسواق: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا \* أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُورًا \* انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً} [الفرقان: 7 - 9]، وتوهَّموا أن اللهَ إذا بعث رسولاً فلن يبعثه من البشر، وإنما يُرسله من الملائكة: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ \* وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ \* وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأنعام: 8 - 10].

وطالما جابَهوه بالسخرية والاستهزاء: {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ} [الأنبياء: 36].

{وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً \* إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً} [الفرقان: 41، 42].

وكثيرًا ما عابوا عليه فقرَه: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ \* أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف: 31، 32].

وكلما ضاقوا بالرسول ذَرْعًا اتهموه بالجنون: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ \* لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ \* مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ} [الحجر: 6 - 8]، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ \* وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ \* أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الأعراف: 182 - 184]، واتَّهموه مع الجنون بأنه شاعرٌ يعيش على الخيال والأوهام: {وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ} [الصافات: 36].

كما رمَوْه مع الجنون بالكهانة، ويردُّ اللهُ عليهم هذا الاتهام بقوله: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ} [الطور: 29]، {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ} [التكوير: 22].

ويقول تعالى: إن هذا شأنُ جميعِ الأمم السابقة: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ \* أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ \* فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ \* وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: 52 - 55].

ولما كان للشِّعرِ عندهم من مكانة ألحُّوا في اتهام الرسول بأنه شاعرٌ، وأن من الخير تَرْكَه حتى تنتهي حياته: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ \* قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ \* أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ \* أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ \* فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ} [الطور: 30 - 34].

وكانوا يستبعِدون كلَّ الاستبعاد أن يبعث اللهُ رسولاً من البشر: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً \* قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً} [الإسراء: 94، 95].

وما أنكَرَ محمدٌ بشريَّته، بل أعلنها بكل الوسائل في كل مجال: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: 110]، فهو بشَرٌ مماثلٌ لهم، ولا فرق بينه وبينهم إلا أنه يتلقَّى الوحيَ السماوي بأن اللهَ إلهٌ واحد، وأنه وحده المستحقُّ للعبادة والتقديسِ، وأن كل إنسان سيلقَى ربَّه مهما طال به العمرُ، وسيحاسب على ما قدَّمَتْ يداه، ومحمَّدٌ في بشريته يجري عليه ما يجري على البشر جميعًا؛ فهو يصِحُّ ويمرَضُ، ويحيا ويموت، ويفرَحُ ويحزَنُ: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: 144]، {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمر: 30]، لكنهم في لَجَاجِهم وعنادهم لم يقدُروا الله حقَّ قدرِه، ولا عرَفوا حكمته في اصطفاء الرسل من البشر؛ قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام: 91]، وكانوا يظنُّون أن بشريته تمنعُه من حَمْلِ الرسالة وأدائِها؛ {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ \* لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ \* قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ} [الأنبياء: 2 - 5].

ولقد أمعنوا في إيذاء الرسولِ صلى الله عليه وسلم، واتَّهموه بأنه يفتح سمعه للكذابين، ويتأثَّر بهم، وفاتَهم أنه لا يحبُّ أن يسمعَ إلا الخير: {وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة: 61].

وأمعنوا في إيذائه، حتى نالوا من أهله، فهذه السيدة عائشة أمُّ المؤمنين، زوجُ الرسول صلى الله عليه وسلم، وأحبُّ نسائه إليه - رمَوْها بالبهتان العظيم، حتى أظهر اللهُ سبحانه وتعالى براءتَها، وطهَّرها في كتابه الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا} [الأحزاب: 57].

ولم يكتفوا بأن القرآنَ معجزةٌ كبرى للنبيِّ صلى الله عليه وسلم، بل طالبوه في إلحاح بالمعجزات الحسية المادية، وفاتهم أن المعجزاتِ المادية محدودةُ الزمان والمكان، ومقصورة على عددٍ محدود من المشاهِدين، أما القرآن فإعجازُه غيرُ مقيَّد بزمان ولا مكان، ولا عدد المشاهدين، ولكنهم لا يفقَهون: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: 109]، ولَمَّا حدثت معجزةُ انشقاقِ القمر، أسرَعوا بالتكذيب؛ قال تعالى: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ \* وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ \* وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ} [القمر: 1 - 3]، {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ \* أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ \* قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [العنكبوت: 50 - 52].

ولَمَّا تحداهم القرآنُ بإعجازه، وقرَّر عجز الإنسِ والجِنِّ عن أن يأتوا بمثله: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: 88]، لجُّوا في عنادِهم وطغيانهم، وطلبوا إليه أن يخرِقَ النواميس الكونية في السماء والأرض، وأن يأتيَهم بمعجزات حِسية مادية قبل أن يستجيبوا لدعوته: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا \* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا \* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً \* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولاً} [الإسراء: 90 - 93]؛ أي: لستُ ملاكًا ولا إلَهًا، وإنما بشر رسول.

فلو كان القرآنُ من كلام محمد، ما سجَّل فيه مطاعنَ المشركين، ولا لَمْزَهم، ولا سخريتهم منه، ولا تحدِّيَهم له، ولكنه: {تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: 192، 193].

عاشرًا: ذكرنا ألوانًا من الأدلة العقلية والبراهين المنطقية على أن القرآنَ ليس من تصنيف محمدٍ، وإنما هو كتابٌ عزيز، لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفِه، تنزيلٌ من حكيم حميد، ونسوق الآن أدلةً عِلمية حاسمةً، لا مجال للخلاف فيها؛ فقد تناول القرآنُ الكريم بعضَ الكشوف العِلمية التي لم يعرِفْها العالَمُ إلا في العصر الحديث.

ومع أن القرآنَ كتابُ هداية ونورٍ، فإنه ألَمَّ ببعض القضايا العلمية؛ قال تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ \* وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ \* وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذاريات: 47 - 49]، ففي آياتٍ ثلاثٍ قصارٍ لا تتجاوز سطرين انتقل بنا القرآنُ الكريم من آفاق السمواتِ، إلى أرجاء الأرض، ثم إلى عوالِم الإنسان والحيوان، والنبات والجماد، وأعطانا أحدَثَ ما وصل إليه العلمُ الحديث من كشوفٍ لم يكن يعلمها أصلاً قبل ذلك.

فمن حيث السماء، أشارت الآيةُ الكريمة إلى تمدُّدِ الأجرام السماوية واتساعها، ونحن نعلم أن المجموعة الشمسية بكواكبها التسع، وأقمارها العديدة، وما تضمُّه من مذنَّبات مثل مذنَّب: "هالي" - هي جزءٌ من المجرَّة، وأن المجرَّة تضم نحو مائة ألف مليون مجموعة شمسية، في كل منها كواكب عديدة، وأقمار كثيرة، ومذنَّبات وغبار كوني... وأن الكون الفسيح يضم نحو ألف مليون مجرة، وأقربُ المجرات إلينا تبعد نحو سبعمائة ألف سنة ضوئية، والسنة الضوئية تقدر بما يقطعه الضوء من مسافات مقدارها ثلاثمائة ألف كيلو في الثانية الواحدة، أو عشرة ملايين مليون كيلو متر تقريبًا في السنة الواحدة، وأقرب شمس إلينا هي ألفيا سنتيوري، وتبعد عنا نحو أربع سنين ضوئية، وأحدثُ ما وصلت إليه الكشوف العلمية أن الكون يتمدد ويتسع كما تتسع كرة القدم بالنفخِ فيها، وتمدُّد الكون وتباعُد أجرامه بعضها عن بعض يتم بسرعة نحو مائة وستة أميال في الثانية الواحدة، ونعلم أن اتساع الكون الآن يبلغ عشرة أمثال حجمه في بدء الخليقة، وأن نِصف قُطره الآن يعادل خمسة آلاف مليون سنة ضوئية، ونقول: الآن؛ لأنه يتمدد بسرعة أكثر من مائة ميل كل ثانية، وهو شبيه بمنطاد يتمدد ويظل يتمدد، حتى تنفجر حبال الجاذبية التي تربط بعضَ الأجرام السماوية بالأجرام الأخرى، وإلى هذا تشير الآياتُ الكريمة: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ \* وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً \* فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ \* وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ} [الحاقة: 13 - 16]، وفي الحديث الشريف: ((وصاحب الصور قد التقم الصور ينتظر الإذن بالنفخ))؛ رواه أحمد، وإلى هذا التمدُّد والاتساع أشار القرآنُ الكريم بقوله: {وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}، وتبارك الله: {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ} [فاطر: 1].

هذا ما يتعلَّقُ بالسماء، أما ما يتعلق بالأرض، فالله تعالى يقول: {وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا} [الذاريات: 48]؛ أي: كسَوْناها بغشاء يغلِّفها، ونحن نعلم أن الأرض كرة ملتهبة من النار، انفصلت من الشمس منذ خمسة آلاف مليون عام، وحرارتها تعادل حرارة قرص الشمس "خمسة آلاف درجة مئوية" مثل حافَة الشمس، وقد كساها الله بغلاف رقيق باردٍ لا يتجاوز بضعة أميال، وهذا الغلاف يحتوي البحار والأنهار، والجبال والغابات والمروج، وعالم الإنسان، وعالم الحيوان، وعالم النبات، وكلَّما تعمَّقنا في جوف الأرض ثلاثين مترًا، ارتفعت الحرارةُ درجةً، حتى نصلَ إلى درجةِ حرارةٍ تنصهر فيها الحجارةُ والمعادن، وتحاول أن تنسف القشرة التي تغلف سطح الأرض، فتحدث الزلازل، وقد تمزِّقها فتنفجر البراكين المدمِّرة بما تقذفُه من صخور ومعادنَ ذائبة مصهورة، وإذا كان محورُ الكرة الأرضية يعادل ثلاثة عشر ألف ميل، فإن القشرةَ الأرضية لا تتجاوزُ بضعة أميال، هي: الفرش الرقيق لسطح الكوكب الأرضي؛ تبارَك الله: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً} [البقرة: 22] وقال تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا \* لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا} [نوح: 19، 20]، ومعنى بسطها: أنها مهيَّأة لنمدَّ فيها الطرق والسكك الحديدية، وتمخر السُّفن فيها عباب البحار والمحيطات، وهذا لا ينافي كرويتها التي أشارت إليها الآيةُ الكريمة: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} [الزمر: 5]، ولا ينافي دورانها حول محورها الذي أشارت إليه الآية الكريمة: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} [النمل: 88]، فسبحان: {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى \* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى \* وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى \* فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى} [الأعلى: 2 - 5].

هذا ما يتعلَّقُ بالأرض التي نعيش على سطحها فوق أتون ملتهب من النار، ونعيش تحت سمائها تحت سقف محفوظٍ يحمينا من الشُّهب المتساقطة، أو الحاصب الذي يقذف الأرض بمئات الملايين كل يوم منها؛ قال تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ \* أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك: 16، 17].

أما موضوعُ ازدواجية الكائنات فقد تناوَلَه أكثرُ من آية؛ قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} [يس: 36].

وكان العربُ يعلمون عند نزول القرآن أن الذكورةَ والأنوثة ومِن التقائها يمتدُّ النسلُ، ويبقى الجنس قائمًا عن طريق التلقيح والإخصاب، وكان العرب يعلمون أن هناك نباتًا واحدًا تبدو فيه الذكورة والأنوثة، وهو نخل البلح، فكانوا يؤبِّرون "يلقِّحون" النخلة الأنثى بطَلْع النخلة الذَّكر، ويسمونها بعملية: التأبير، وفيها يقول الرسولُ صلى الله عليه وسلم: ((أنتم أعلمُ بأمر دنياكم))؛ رواه مسلم.

ولكن الآية الكريمة تعمم الازدواجية في جميع الكائنات: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذاريات: 49]، وقد كشفنا في العصر الحديث الازدواجية في عالَم النبات كله، ورأينا أعضاءَ التذكير وأعضاء التأنيث داخل الأزهار بالبصر العادي أو بالمنظار المكبِّر، ثم عرفنا حديثًا أن الازدواجية موجودةٌ في عالم الجماد أيضًا، وأطلقنا عليها بدلاً من تعبير الذكورة والأنوثة تعبير: "السالب" و "الموجب"، فإن جميع الكائنات يمكن ردُّها إلى بضعة وتسعين عنصرًا، وكلها تنتهي إلى ذرَّات بالغة الحد في الصغر، وعلِمْنا حديثًا أن كل ذرة تضم نواة "بروتين" وكويكيات" "إلكترونات"، وأن النواة كهربا موجبة، والكويكيات كهربا سالبة، كما علمنا أن الكون مكوَّن من طاقة أو مادة، والطاقة فيها الجانب السلبي، كما فيها الجانب الإيجابي، وأن كلاًّ منهما يكمِّل الآخر، فلو جئنا بقضيبينِ ممغنطينِ، فإن لكل منهما طَرَفَه السلبيَّ، وطَرَفَه الإيجابي، فلو قرَّبنا طَرَف القضيب الإيجابي مِن الطَّرَف الايجابي للقضيب الآخر لنفَر منه مبتعدًا، وكذلك الأمر لو قربنا الطَّرَف السلبي من السلبي الآخر لنفَر منه، ولو قرَّبنا الطرف السلبي من الطرف الإيجابي للقضيب الثاني لتجاذَبَا تمامًا، وكملت الدائرة المغناطيسية والكهرباء، كذلك يتكوَّنُ الحبل الموصل للكهرباء من سلكين، أحدهما: تياره موجب، والآخر: تياره سالب، فلو انقطع أحد السلكين لانطفأ النورُ، حتى يتم وصلُه، ومن هنا تبدو الازدواجية في عالَم الجماد، كما تبدو في عالَم الحيوان وعالم النبات أيضًا، وصدق الله إذ يقول: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} [الذاريات: 49].

فمَن أعلم محمدًا النبيَّ الأمِّيَّ أسرارَ الكون؟ وأنه يتمدد ويتسع باستمرار وفي إدارة طبيعة الغلاف الذي يضم أتون الأرض الملتهب وجوفها المنصهر، ومَن أخبره بازدواج جميع الكائنات؟ إنه لم يعرف هذا من عند نفسه، وإنما هو {تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: 192، 193].

وكثيرٌ من الآيات القرآنية يضمُّ أسرارًا عِلمية لم يكشفها العلمُ إلا في العصر الحديث، بل إن بعضها سبَق العلم الحديث، وقرَّر أمورًا عِلمية، ما زال العلم الحديث يحاول جاهدًا الكشف عن أسرارها، فمن القضايا التي يقف العلمُ حائرًا أمامها الآن: قضية سكان الكواكب، إن العالَم الآن يعِجُّ بملايين الكواكب الشبيهة بالأرض، فهل انفردت الأرضُ وحدها دون بقية الكواكب، فإنها وحدها المأهولة بالسكان؟!

إن العلماءَ الآن يرسلون المركبات الفضائية إلى بعض كواكب المجموعة الشمسية لتصويرِ ما فيها، ولم تصِلْ إلى نتيجة إيجابية حتى الآن، ولكننا نتلقى وتصلُنا إشارات من أعماق الفضاء السحيقة من عالَم مجهول، ولم نستطع حلَّ رموز هذه الإشارات حتى الآن، ولكن القرآن الكريم يقرِّر في كثير من آياته البينات أن هذه الكواكب مأهولةٌ بالسكان الممتازين بالعقل، أو الذين يتجرَّدون منه، والمعروف في اللغة أن كلمة "مَن" تدل على العاقل، وكلمة "ما" تدل على غير العاقل، والله تعالى يقول: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا \* لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا \* وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: 93 - 95]، ويقول سبحانه: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء: 44]، وكما أن في السموات كائناتٍ عاقلة، فيها كائناتٌ غيرُ عاقلة أيضًا، والله سبحانه يقول: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً} [النساء: 132]، ويقول الله تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الحشر: 1].

وفي كواكب السماء دوابُّ أيضًا تدبُّ على سطوحِها؛ قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} [الشورى: 29]، وقد يتأوَّل أحدُ المتأولين الدوابَّ التي تدب على سطوح هذه الكواكب بالملائكة، مع أنه لا يصح وصفُ الملائكة بالدواب، وينافي هذا ما ورد في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [النحل: 49]؛ فالعطفُ يقتضي المغايرة، ولو استعرضنا القرآنَ الكريم كله ما وجدنا فيه حقيقة تناقض العلم الحديث، بعكس ما نراه متجليًا في إصحاحات العهدِ القديم والعهد الجديد "التوراة والإنجيل"، وهذا دليلٌ قاطع على أصالة القرآن الكريم وأنه: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 42].

ومهما بلغ الإنسانُ من القدرة البلاغية، فإنه لا يستطيع أن يرضى عما أبدعه من فنون البلاغة، ويتمنَّى أن يعدله ليصلَ به إلى مدًى أسمى مما بلغ إليه، وفي هذا يقول العماد الأصفهاني: "إني رأيت أنه لا يكتب أحدٌ كتابًا في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسَن، ولو زِيدَ كذا لكان يُستحسَن، ولو قدِّم هذا لكان أفضَلَ، ولو ترك هذا لكان أجملَ، وهذا من أعظمِ العِبَر، وهو دليلٌ على استيلاء النقصِ على جملة البشَرِ".

والرسولُ صلى الله عليه وسلم طالَع العرَبَ بآيات الذِّكر الحكيم متتالية متوالية يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وعامًا بعد عام، في مدى نيف وعشرين عامًا، وهو في أثنائِها يتحدَّى العربَ أن يأتوا بمِثْلِ هذا القرآن، ويتلو عليهم قوله تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: 88]، فعجَزوا عن مواجهة هذا التحدي، ثم عاد فتحدَّاهم أن يأتوا بعَشْر سُوَر مِثله مُفتَرَيات؛ قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [هود: 13]، طالَبهم بهذا ودعاهم لأن يستعينوا بمن يرَوْن فيه فائدةً في المعونة إن كانوا صادقين! و(إن) أداة شرطية تدلُّ على الشك في مدى استطاعتهم، ثم عاد مرة ثالثة فتحدَّاهم بأن يأتوا بسورةٍ واحدة، ولم يحدد مدى هذه السورة؛ فإن هناك سورًا قصيرة لا تزيد عن ثلاث آيات، وقد تكون سطرًا واحدًا، أو سطرينِ على الأكثر.

ثم عاد فقرَّر في عبارةٍ حاسمة جازمة أنهم لن يستطيعوا أن يقبَلوا التحديَ؛ لأنهم أعجزُ من أن يواجِهوه؛ قال تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: 23، 24]، وزاد على التحدي إنذارَهم بالعذاب الأليم في النار، التي وقودُها الناسُ والحجارة، إذا أصرُّوا على جَحْد القرآن الكريم، والتكذيبِ بآياته البيِّنات.

وهم في أثناء تخبُّطهم العجيب في مواجهة تحدِّي آيات القرآن الكريم يحاولون تبريرَ هذا العجز الرهيب، فيزعمون أنه يتلقَّى القرآنَ الكريم عن طريق الشياطين، وقد دحض القرآنُ الكريم هذا الادِّعاءَ فقال: {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ \* الْجَوَارِ الْكُنَّسِ \* وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ \* وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ \* إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ \* ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ \* مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ \* وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ \* وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ \* وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ \* وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} [التكوير: 15 - 25]، فليس القرآنُ مِن وحيِ شيطانٍ، وإنما هو {تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}، على خاتَم المرسَلين، بلسانٍ عربي مبين، وقد كان العربُ يعتقدون أن لكلِّ شاعرٍ شيطانًا يُلهِمُه ما يقولُ، وكان الشعراءُ أنفسُهم يُعلنون هذا، فيقول أحدهم:

إنِّي وكلَّ شاعرٍ من البشَرْ = شيطانُه أنثى وشيطاني ذَكَرْ

إذًا، فمحمدٌ شاعر، ولا بد أن وراءه قوةً من الشياطين تُلهِمُه ما يقوله ويتحدَّى به البشر، وقد كذَّب القرآنُ هذا الادعاءَ، ويكفي أن نقول: إن في المشركين شعراءَ موهوبين، فما بالُهم وقفوا عاجزين أمام تحدِّي القرآن الكريم؛ قال تعالى: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ \* لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} [يس: 69، 70]، وفنون الشِّعر العربيِّ تقوم على العاطفة والخيال، وتتناولُ فنونَ المديح والهجاء، والحماسة والنسيب، وهذا القرآنُ الكريم يقومُ على الحقائقِ والعقل الرَّزِين، وليس من هذه الفنون بسببٍ أو نصيبٍ، ولا يمُتُّ إلى همزاتِ الشياطينِ بأيِّ سبب من الأسباب؛ قال تعالى: {وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ \* وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ \* إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ} [الشعراء: 210 - 212].

وتوالى التحدي، وتوالى العجزُ، وتلاحَق الإعجاز، وحينما يظهر العجز يطالعهم بإعجاز جديد، ظل يتلاحق ثلاثة وعشرين عامًا بمكَّةَ، ثم المدينة، وظل الإعجازُ قائمًا على تلاحق العصور، وهم يدركونه، وإن كانوا يكابرون فيه عنادًا ولَجاجًا، حدَث أن ثلاثةً من بلغاءِ قريش كانوا يتسلَّلون إلى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ليلاً، فيُنصتون إلى تلاوتِه أثناء الصلاة ليلاً، وهم الوليدُ بن المُغيرة، والأخنس بن قيس، وأبو جهل بن هشام، وتأخذهم بلاغة القرآن، فيستمرُّون في الاستماع حتى الصباح، فلما أصبَحوا انصرَفوا، فجمعتهم الطريق، فتلاوَموا على ذلك، وقالوا: إنه إذا رآكم سفهاؤكم تفعلون ذلك، فعَلوه، واستمالهم إليه بقوة تأثيره، فآمَنوا به، فلما كان في الليلة التالية عادُوا إلى التسلُّل إلى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخَذ كلٌّ منهم موضعه، واستمعوا إليه حتى الصباح، فلما أصبحوا، جمعتهم الطريقُ، فاشتد نكيرُهم وتلاوُمُهم، وتعاهَدوا وتحالَفوا ألا يعودوا، فلما تعالَى النهارُ جاء الوليد بنُ المغيرة إلى الأخنس بن قيس فقال له: ما تقول فيما سمعتَ من محمد؟ فقال الأخنس: ماذا أقول؟ قال بنو عبدالمطلب: فينا الحِجابة، قلنا: نعم، قالوا: فينا السدانة، قلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، قلنا: نعم، يقولون: فينا نبي ينزل عليه الوحيُ! والله لا آمنتُ به أبدًا، فالموقف ليس موقفَ إنكارٍ للقرآن، ولا جحد لإعجازِه، وإنما هو موقف عِناد ولَجاج وإنكارٍ للحقِّ الواضح البيِّن، وكما قال تعالى: {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ} [الأنفال: 6]، وكانوا إذا استمعوا إلى القرآنِ، ملَكَ عليهم عقولَهم وقلوبَهم، وامتلأت نفوسُهم بالرهبة والخشوع، قال جابر بن عبدالله: اجتمعت قريشٌ يومًا فقالوا: انظروا أعلَمَكم بالسِّحر والكهانة والشِّعر، فليأتِ هذا الرجلَ الذي فرَّق جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وعاب دينَنا، فلنُكلِّمْه، ولننظر ما يرد عليه، فقالوا: ما نعلم من أحد غير عتبةَ بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبةُ، فقال له: أخيرٌ أنت أم عبدالله؟ فسكت صلى الله عليه وسلم، فقال: أنت خير أم عبدالمطلب؟ فسكت النبيُّ (يريد أبا النبيِّ وجدَّه)، فقال: إن كنت تزعم أن هؤلاء خيرٌ منك، فقد عبَدوا الآلهة التي عِبْتَ، وإن كنت تزعم أنك خيرٌ منهم، فتكلَّم حتى نسمعَ قولك، إنا والله ما رأينا سَخلةً قط أشأمَ على قومِك منك؛ فرَّقتَ جماعتَنا، وشتَّتَّ أمرَنا، وعِبْتَ دِيننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طارَ فيهم أن في قريش ساحرًا، وأن في قريش كاهنًا، والله ما ننتظره إلا مثل صيحة الحُبلى أن يقومَ بعضُنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى، أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجةُ، جمَعْنا لك حتى تكون أغنى قريش، وإن كان إنما بك الباءةُ، فاختر أيَّ نساء قريش شئتَ، فلنُزوِّجك عشرًا، فقال صلى الله عليه وسلم: ((فرَغْتَ؟))، قال: نَعم، فتلا عليه قولَه تعالى: {حم \* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ \* بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} [فصلت: 1 - 4]، حتى بلَغ قوله تعالى من سورة فصلت: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} [فصلت: 13]، فأمسَك عتبةُ على فمِ الرسولِ وقال وقد ارتعدت فرائصُه وناشَدَه الرحم: حسبُك يا محمد، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش، واحتبس عنهم، فقال أبو جهل: يا معشرَ قريش، والله ما نرى عتبةَ إلا قد صبأ إلى محمدٍ، وأعجَبه طعامُه، وما ذاك إلا من حاجةٍ أصابته، فانطلِقوا بنا إليه، فانطلَقوا إليه فقال له أبو جهل: يا عتبةُ ما حبَسَك عنا إلا أنك صبأتَ إلى محمد، وأعجَبَك طعامُه، فإن كانت بك حاجةٌ، جمعنا لك من أموالنا ما يُغنيك عن طعام محمدٍ، فغضب عتبةُ، وأقسم ألا يكلمَ محمدًا أبدًا، وقال: والله لقد علمتم أني من أكثرِ قريش مالاً، ولكنني أتيته وقصصتُ عليه القصة، فأجابني بشيء والله ما هو بشِعرٍ، ولا كهانة، ولا سِحر، وقرأ السورةَ إلى قوله تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} [فصلت: 13]، فأمسكتُ بفِيهِ وناشدتُه الرَّحِم أن يكفَّ، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذِبْ، فخشيتُ أن ينزل بكم العذابُ، وليس عجيبًا أن يُحدِثَ القرآنُ الكريم هذا الأثَرَ العجيب في النفوس؛ فقد ترَك آثارَه العميقةَ في نفوس الجن فأسلَموا، كما قال تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ \* قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ \* يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ \* وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الأحقاف: 29 - 32].

ولقد بنى الباقِلاَّنيُّ كتابه: "إعجاز القرآن" على حقيقةٍ معروفة، وهي أن الشاعرَ أو الأديب - مهما بلَغ من الإبداع - لا يستطيع أن يظلَّ في مستواه الرفيعِ في كل ما ينتجه من الروائع، بل هو يحلِّق في أجواءِ الفضاء، ثم يهبط أحيانًا إلى الحضيض؛ فقد تُسعِفه مواهبُه فيأتي بالروائع، ثم تخُونه مواهبه ويتغلَّبُ عليه ضعفُه البشري، فيسف إلى ما دون المستوى المطلوب، وفي ضوء هذه الحقيقة الصادقة استعرض الباقلانيُّ شِعر زعيم الشعراء في الجاهلية، وهو امرؤُ القيس، فنوَّه بروائعه، وأبرَز إبداعه إبرازًا واضحًا ملموسًا، ثم نبَّه على سقَطاته، وأظهر ما فيها من ضعفٍ وتهافُت، وتناوَل بمثل هذا شاعريةَ أكبر شعراءِ الإسلام، وهو البُحتريُّ، فأبرَز روائعَه الفنية، وأظهَر سقطاتِه، ووضَّحها أتم توضيح، أما القرآنُ الكريم فهو دائمًا في الذِّروة والقمة، وليس فيه أيُّ تهافتٍ أو ضعف، واستشهَد بقوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: 82].

وحسبُنا ما سُقناه من الأدلة العقلية والبراهين العِلمية على أن القرآنَ لا يمكن أن يكونَ مِن صناعة محمَّدٍ، وإنما هو {تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: 192، 193].